مطالعات فى « ألف ليلة وليلة »

عبد الله البرى وعبد الله البحرى

قصة فلسفية دينية

للدكتور حسين فوزى

إنى أراه هذا الصياد المعدم وقد عاد من صيده فارغ الجعبة ينتظره بالبيت تسعة عيال وأمهم التى وضعت فى هذا اليوم بالذات مولودها العاشر . أراه فى عودته واقفاً بباب الخباز وسط الزحام وكان « وقت غلاء ، ولا يوجد عند الناس من المؤن إلا القليل فى تلك الأيام » [1] ، يرمق الأرغفة المتراصة بنظر زائغ ، ويستعبر رائحة « العيش السخن » تشتهيه نفسه . أراه ماثلاً أمامى هذا الصياد « الغلبان » خرج صباح اليوم يلقى الشبكة « على بخت المولود الجديد » فلا تصيد إلا رملاً وحصى وأعشاباً . وهو يتساءل « كيف يخلق الله هذا المولود من غير رزق » وقد حفظ من أقوال الأقدمين : « من شق الأشداق ، تكفل لها بالأرزاق . فالله تعالى كريم رزاق »

وإذا بالخباز يناديه ويسأله إن كان يطلب خبزاً . ثم يلح عليه فى أن يحمل منه ما يريد فهو صابر عليه حتى يأتيه الخير . ويرضى الصياد على شريطة أن يقدم شبكته رهناً ، فيرفض الخباز احتجاز الشبكة التى يقوم عليها أود الصياد ، ويعطيه خبزاً بعشرة أنصاف فضة ، ويقدم له عشرة أنصاف فضة « ليطبخ بها طبخة » . على أن يجيئه بسمكه فى الغد .

وفى اليوم التالى يخفق فى صيده كما أخفق فى اليوم السابق ، فيخجل أن يقف بباب الخباز . بل هو يعجل بخطاه أمام حانوته ولكن الخباز يناديه قائلاً « ياصياد ، تعال خذ عيشك ومصروفك فإنك نسيت » . ودام الحال على هذا أربعين يوماً حتى سئم الصياد هذه الحياة ، وود أن لم يكن الخبز فى طريقه إلى البحر حتى لا يضطر إلى المرور بالخباز الكريم . ولكن زوجه تشجعه على المضى إلى البحر ، وتشكر الله الذى قيض لهم هذا المحسن

ويذهب الصياد إلى البحر فى اليوم الواحد والأربعين وهو يدعو الله أن يرزقه « ولو بسمكة واحدة يهديها للخباز » : وإذا بالشبكة متثاقلة يسحبها فى مشقة . حتى إذا هى عادت إليه ألفاها تحمل . . . حماراً ميتاً ! وهرب من الرائحة الكريهة إلى ناحية أخرى من الشاطىء . وتثاقلت عليه الشبكة أكثر من المرة السابقة ، حتى إذا ماجذبها إليه خرج منها رجل حسبه الصياد « عفريتاً ممن اعتاد سليمان أن يحبسهم فى القماقم يرمى بها إلى البحر » . وصاح الصياد :

— الأمان ، ياعفريت سليمان !

فيجيبه الرجل :

— تعال ياصياد ، لاتهرب منى فأنا آدمى مثلك . خلصنى لتنال أجرى .

يخلصه الصياد ويعلم من أمره أنه ليس عفريتاً من الجن . فيسأله عمن رماه فى البحر ، ويجيبه بأن البحر مقره ومثواه . فهو من « أولاد البحر » وقع بالشبكة صدفة ، وكان بوسعه أن يقطعها ليخلص نفسه ، لولا أنه « راض بما قدر الله » . ويسأل الصياد أن يعتقه « ابتغاء لوجه الله » . ويتفق وإياه أن يجتمعا فى ذلك الموضع كل يوم ، فيأتيه الصياد بفواكه البر « وعندكم منها العنب والتين والبطيخ والخوخ والرمان وغير ذلك » ويأتيه هو

(١) الفقرات الموضوعة بين أقواس مقتطعة من النص الأصلى للقصة كما هى دون تبديل . وكذلك الأحاديث باقية كما هى فى الأصل . وكل ماأخذته بشأنها هو ترتيبها حسب الأوضاع العصرية المتبعة فى القصص .

« بمعادن البحر من مرجان ولؤلؤ وزبرجد وزمرد وياقوت وغير ذلك » .

ويقرآن الفاتحة ، ويخلصه الصياد من الشبكة ثم يتفقان أن ينادى الصياد عليه من البر كلما أراد ، قائلاً « أين أنت ياعبد الله يابحرى ! » فيلبي .

— والآن ماسمك أيها الصياد ؟

— اسمى عبد الله

— أنت إذن عبد الله البرى ، وأنا عبد الله البحرى . إنتظر حتى آتى لك بهدية

ويختفى عبد الله البحري فى الماء هنيهة تبدو لعبد الله البرى كأنها دهر . ويتأسف على تركه هـذا المخلوق يفلت من يديه ، وكان فى استطاعته أن يأخذه إلى المدينة يعرضه فى الأسواق ، ويدخل به « بيوت الأكابر »

ويعود عبد الله البحري باللؤلؤ والمرجان والزمرد والياقوت ملء اليدين . ويعتذر لأخيه عبد الله البري عن عدم تمكنه من أن يحمل إليه أكثر من ذلك . ولو أن « عنده مشنة لملأها له » ويتواعدان على اللقاء فى الأيام التالية

وغدا عبد الله البرى رجلاً واسع الثروة بفضل صداقته لسميّه البحرى . وقد أخفى سره إلا عن الخباز الذى أحسن إليه فى عسره . وراح يقاسمه الجواهر البحرية

ولكن هذه الثروة الفاجئة تستثير شكوك الناس . وينتهي الأمر إلى أن يتهمه شيخ الجوهرية بسرقة حلى ابنة الملك . ويقتاده الحرس إلى القصر ، فتنكر الأميرة أن هذه جواهرها . وترسل إلى والدها من يقول له بأن بعض اللآلئ أجل من لآلئ عقدها . فيغضب الملك وينهر شيخ الجوهرية وأتباعه . فاذا اعتذر الرجل بأن « الصياد كان فقيراً فاستكثرنا عليه هـذا الغنى المفاجئ » صاح الملك فيه وفيمن حوله : « أتستكثرون النعمة على مؤمن ؟ اخرجوا لا بارك الله فيكم »

وسأل الصياد عن قصته فسردها عليه . وهنا يطأطئ الملك الحكيم رأسه هنيهة ثم يرفعه قائلاً :

— يا رجل ، هذا نصيبك . ولكن المال يحتاج إلى الجاه ، وأنا أسندك بجاهى

ثم يزوجه ابنته ويقيمه وزيراً له ، ويحنو على أطفاله العشرة وتكون زوجة الصياد موضع تكريم الملكة « فتنعم عليها ، وتجعلها وزيرة عندها »

وغداة الزواج يطل الملك من النافذة فيرى وزيره وصهره عبد الله حاملاً على رأسه « مشنة » ملأى بالفواكه فينكر عليه ذلك ، ويجيبه صهره بأن لا قبل له بإخلاف ميعاد صديقه عبدالله البحري ، خصوصاً فى الظرف الحاضر إذ يحق له أن يتهمه بأن « إقبال الدنيا عليه ، قد ألهاه عنه »

يحافظ عبد الله البرى على عهد صاحبه البحرى ، ويواصل قسمة الجواهر بينه وبين صاحبه الخباز . ثم ينتهى إلى التحدث بشأنه مع الملك الذى يقول له « أرسل إلى صاحبك الخباز وهاته لنجعله وزير ميسرة »

وربما حسبت القصة منتهية عند هـذا الحد . والواقع أن مجرد استقرار الحال قد يؤذن بختامها ؛ فعبدالله البرى يذهب كل يوم بسلة الفواكه يستبدلها بجواهر البحر . وحين تخلو البساتين من الفواكه يحمل إلى صاحبه الزبيب واللوز والبندق والجوز والتين . ويدوم الحال على هذا عاماً تتطور القصة فى آخره تطوراً جديداً أسرده عليك

جلس عبد الله البري ذات يوم على شاطئ البحر يتحدث إلى صديقه عبد الله البحرى فيبادره هذا قائلاً :

— يقولون ياأخى إن النبى صلى الله عليه وسلم مدفون عندكم فى البر ، فهل تعرف قبره ؟

— نعم ، فهو فى مدينة يقال لها طيبة

— وهل يزوره أهل البر ؟

— نعم .

— هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة النبى الكريم . فمن زاره استوجب شفاعته . هل زرته أنت يا أخى ؟

— لا ، فقد كنت فقيراً لا أجد ما أنفقه فى الطريق . ولم أصبح غنياً إلا منذ عرفتك . والآن وجبت علىّ زيارته بعد أن أحج إلى بيت الله الحرام . وما منعنى عن ذلك إلا محبتى لك

— وهل تفضل محبتى على زيارة قبر رسول الله الذى يشفع لكم يوم العرض على الله ؟

— إن زيارته والله مقدمة عندى على كل شىء . وأطلب منك إجازة أزوره هذا العام

— أعطيك الإجازة بزيارته . وإذا وقفت على قبره فاقرئه منى السلام . وعندى أمانة فادخل معى فى البحر حتى آخذك إلى مدينتى وأدخلك بيتى ، وأعطيك الأمانة لتضعها على قبر الرسول

— يا أخى ، أنت خلقت فى الماء ، ومسكنك الماء فهو لا يضرك . فهل إذا خرجت منه إلى البر يصيبك ضر ؟

— نعم ، يجف بدنى وتهب علىّ نسمات البر فأموت

— كذلك أنا ، خلقت فى البر ومسكنى البر . فإذا دخلت البحر يدخل الماء فى جوفى ويخنقنى فأموت

— لا تخف ، فإنى آتيك بدهان تدهن به جسمك فلا يضرك الماء ، حتى لو قضيت فيه بقية عمرك

وعبدالله البرى رجل كله إيمان واستكانة . فهو راض أن يأتيه بذلك الدهان يجربه . ويحمل عبدالله البحرى « المشنة » ويغوص فى البحر . ثم يعود بها ملأى « شحماً مثل شحم البقر ، لونه أصفر كلون الذهب ، ورائحته زكية » . ويخبر صاحبه بأنه شحم نوع من الأسماك يقال له « الدندان ، أعظم أصناف السمك خلقة »

— وهو أشد أعدائنا علينا ، وأكبر من أى دابة من دوابكم فى البر . ولو رأى الفيل لابتلعه

— وماذا يأكل هذا المشؤوم يا أخى ؟

— يأكل من دواب البحر . أما سمعت المثل القائل : مثل سمك البحر ، القوى يأكل الضعيف ؟

— يا أخى ، إنى أخاف إذا طوفت معك فى البحر أن يصادفنى هذا النوع فيأكلنى

— خفف عنك ، فإنه متى رآك عرف أنك ابن آدم فخاف منك وهرب . فالدندان أشد ما يكون خوفاً منكم . لأن شحم ابن آدم سم قاتل له . بل ليكفى أن يسمع صياح ابن آدم فيموت هلعاً

« وتوكل عبدالله البرى على الله ، وخلع ملابسه ودفنها فى رمال الشاطئ . ثم دهن نفسه بشحم الدندان وغاص فى الماء . وفتح عينيه ومشى يميناً وشمالاً والماء لا يضايقه . وجعل ينزل إلى القرار ثم يرتفع بكل سهولة »

واندفع عبدالله البحرى أمامه دليلاً له فى تلك النزهة البحرية النادرة . فرأى عن يمينه وشماله جبالاً . وشاهد أصنافاً عديدة من الأسماك « البعض كبير ، والبعض صغير . منها مايشبه الجاموس ، ومنها مايشبه الكلاب ، وشىء يشبه الآدميين . وكلما قرب عبدالله البرى من نوع هرب هذا منه . فيسأل صاحبه :

— يا أخي ، ما لى أرى كل هذه الأسماك تهرب منا ؟

— مخافة منك يا أخى . فجميع ما خلقه الله يخاف ابن آدم

ووصلا إلى جبل عال ، فمشى عبدالله البرى بجانب الجبل . وإذا بصيحة عظيمة اتجه إلى مصدرها بنظره فرأى شيئاً أسود منحدراً نحوه من الجبل ، وهو « أكبر من الفيل والجمل » . وسمع صديقه عبدالله البحرى ينادى عليه :

— دونك وهذا الدندان ، فهو متجه إلينا فى طلبى ليأكلنى . صح به !

وصاح عبدالله البرى فزعاً وطائماً فى آن واحد . فإذا بالدندان يقع ميتاً . يتعجب عبد الله البرى ويقول : « سبحان الله ! لم أضربه بسيف ولا بسكين . وها هو ذا على ضخامة جسده لا يتحمل صيحتى ! »

ويدخل الصاحبان مدينة « بنات البحر » ، فيهتم عبدالله البري بأمر هذه الإناث لا ذكور لها ويتساءل كيف تستطيع أن تخلف نسلاً

— إنهن منفيات فى هذه المدينة بأمر ملك البحر . ولا يمكنهن الخروج من هذا المكان ، أو تلتهمهن دواب البحر

— هل فى البحر غير هذه المدينة ؟

— كثير

وجعل عبد الله البرى « يتفرج على عجائب البحر » . وقد رأى لبنات الماء « وجوها كالأقمار ، وشعوراً كالنساء . ولهن أيد وأرجل نابتة فى بطونهن ، وذنب كذنب السمك امتد من مؤخرتهن » . وكان هذا شأن رجال المدن البحرية

— يا أخى ، إنى أرى الإناث والذكور مكشوفى العورة .

— لأن أهل البحر لا قماش عندهم

— وكيف يصنعون إذا تزوجوا ؟

— أهل البحر — فيما عدا المسلمين منهم — لا يتزوجون. وكل من تعجبه أنثى ...

وما زال عبد الله البحرى بصاحبه يدور به على المدائن وأهلها فى أغوار البحر مدى ثمانين يوما . فيسأله عبد الله البرى

— يا أخى ، هل بقيت فى البحر مدائن ؟

— لو كنت فرجتك ألف عام ، كل يوم على ألف مدينة ، وأريتك فى كل مدينة ألف أعجوبة ، لما أظهرتك على قيراط من مدائن البحر وعجائبه .

— يكفينى هذا ، فقد سئمت أكل السمك ، وأنت لا تطعمنى صباحا ومساء إلا سمكا طريا ، لا مطبوخا ولا مشويا . فرجتنى على مدائن كثيرة ، فأين مدينتك منها ؟

ويبلغان مدينة عبد الله البحرى ، فيقوده إلى مغارة ويقول له:

— هذا بيتى . وكل من أراد أن يكون له بيت ذهب إلى الملك وعين الموضع الذى اختاره مسكناً . فيرسل معه الملك طائفة من السمك تعرف بطائفة « النقارين » ، لأن لها مناقير تفتت الجلمود

وإذ يدخلون البيت ، تتقدم ابنة عبد الله البحرى وتبادر أباها بالسؤال ، وقد نال منها العجب أن ترى مخلوقا لا ذنب له :

— يا أبى ، ما هذا الأزعر الذى جئت به ؟

— هذا صاحبي البري يا بنيتى ، من كنت أجىء لك من عنده بالفاكهة البرية . تعالى سلمى عليه

وتتقدم إليه الفتاة ، وتسلم عليه « بلسان فصيح ، وكلام بليغ » وتقدم له القرى ، سمكتين كبيرتين « كل واحدة منهما مثل الخروف » فيأكل متبرما بهذا السمك النيء

وتحضر امرأة عبد الله البحرى ، وهى « جميلة الصورة . ومعها ولدان ، كل ولد فى يده فرخ سمك يقرش فيه كما يقرش الإنسان فى الخيار » . وما أن رأت عبد الله البرى حتى صاحت :

— أى شيء هذا الأزعر ؟

وتتقدم هى وولداها ، يطيلون النظر إلى مؤخرة عبد الله البرى ويقولون « أى والله إنه لأزعر » ويتضاحكون طويلا حتى يضيق ذرع عبد الله البرى بهذا الضحك فيلتفت إلى صاحبه ويقول :

— يا أخى ، هل جئت بى إلى هنا سخرية أولادك وزوجك ؟

ويعتذر عبد الله البحري عنهم مؤكداً له أن المخلوق الذى لا ذنب له فى البحر نادر . وأنه إذا وجد واحد من غير ذنب فانهم يأخذونه للسلطان ليضحك عليه . فلا تؤاخذ هذه المرأة وهؤلاء الصغار ، فعقولهم كما ترى ناقصة »

وبينما هم فى الحديث يفد عليهم عشرة أشخاص كبار شداد ، ويقولون لعبد الله البحرى « لقد عرف الملك بأنك جئت بأزعر من زعر البر ، وهو يريد أن يراه حالا »

ويأخذونه إلى الملك فيتلقاه ضاحكا وهو يقول « مرحباً بالأزعر » . وجعل من فى حضرة الملك يتضاحكون مرددين « أى والله إنه لأزعر ! »

ويقص عبد الله البحرى على الملك قصة صاحبه ، ثم يستأذنه فى أن يعود به إلى البر « لأنه سئم أكل السمك نيا ، ولا يحب أكله إلا مطبوخا ومشويا » . ويأذن الملك له بالرحيل بعد أن يزوده بهدية عظيمة من درر البحر وجواهره

ثم يعود به عبد الله البحرى إلى مغارته ، ويسلمه الهدية التى يرجو أن يوصلها إلى قبر النبى ، ويصطحبه عائداً إلى البر

وبينما هما فى طريقهما وسط الماء ، يلتفت عبد الله البرى إلى جماعة من أهل البحر ينتون ويرقصون حول سماط ممدود من السمك . فيسأل عما إذا كان عرساً هذا ، ويجيبه عبد الله البحرى : إنما هو مأتم

— أو إذا مات عندكم ميت تفرحون له ، وتغنون وتأكلون؟

— نعم . وأنتم يا أهل البر ، ماذا تفعلون ؟

— نحن نحزن عليه ونبكى . وتشق النسوة جيوبهن ، ويلطمن ويندبن الميت

وهنا يحملق عبد الله البحرى فى صاحبه البرى ، ويستأذنه فى أن يسترد الأمانة . وعند وصولهما إلى البر يقول له :

— لقد قطعت صحبتك وودك ، فلن ترانى بعد اليوم

— لم هذا الكلام ؟

— ألستم يا أهل البر أمانة الله ؟

— نعم

— كيف يحزنكم أن يأخذ الله أمانته ؟ وكيف أعطيك أمانة النبى وأنتم إذا أتاكم المولود تفرحون به ، وقد أودع الله الروح فيه أمانة . فاذا استردها تندبون وتولولون ؟ كلا ، ما بى حاجة إلى صحبتكم بعد اليوم يا أهل البر !

ويختفى عبد الله البحرى وسط الأمواج

ويعود عبد الله البرى إلى صهره الملك يقص عليه ما رأى من عجائب البحار

وقد لبث زمناً طويلا يذهب إلى الشاطىء ينادى صاحبه عبد الله البحرى فلا يلبى النداء

وتنتهى القصة بالصيغة التقليدية إذ تقول بأنه أقام والملك نسيبه

وأهلهما فى أسعد حال ، حتى أتاهم هادم اللذات ، ومفرق الجماعات ، وماتوا جميعاً . فسبحان الحي الذى لا يموت ، ذى الملك والملكوت

أما أن الموت مفرق الجماعات فليس من شك فى ذلك . ولو أنه يشترك فى هذا مع الحياة ذاتها ، فقد تكون الحياة مفرقة الجماعات ، ويمتاز الموت عنها بأن تفرقته نهائية لا مرد لها فى هذه الدنيا

وأما أن الموت هادم اللذات ، فهو أيضاً نهاية الآلام . وصاحب أو أصحاب قصص «ألف ليلة» هم آخر من يتكلمون عن اللذات ، وعن أن الموت هادمها . فان أبطال قصصهم يلاقون الأهوال ، ويعانون آلام النوى والبعاد والفقر ، وغير هذا من متاعب الحياة . نعم إن القصص تنتهى فى الغالب إلى خاتمة سعيدة ، يحاول المؤلف أن يلقى فى روعنا دوامها حتى مجىء مفرق الجماعات وهادم اللذات، إلا أن هذا أمر نشك فى صحته كثير الشك

وهذه مسألة ثانوية على أية حال . والأهم لنا أن نكشف عما فى قصة « عبد الله البرى ، وعبد الله البحرى » من نفحة دينية عميقة ، تجعل لها مقاما خاصا بين قصص « ألف ليلة »

فهذا رجل معدم كثير العيال تقول القصة بأنه لا يمتلك إلا شبكته ، يروح بها كل يوم إلي البحر . فان اصطاد قليلا باعه وأنفق على أولاده بقدر ما رزقه الله . وإن اصطاد كثيراً «طبخ طبخة طيبة ، واشترى فاكهة ، وما زال يصرف حتى يأتى على آخر ما معه وهو قائل فى نفسه : رزق غد يأتى غدا » ويوم تضع زوجته مولودها العاشر يخرج على بركة الله تعالى إلى البحر « على بخت هذا المولود الجديد » فتقول له امرأته « توكل على الله »

يمارس هذا الرجل الفقير وزوجه إذن فضيلة من الفضائل الدينية بإيمان كامل . ولكن التجربة فى الولد العاشر كانت شديدة الوقر على الصياد . فقد مضى عليه أربعون يوماً لا يجد في شبكته رزقا .

وهنا تنتقل بنا القصة إلى طبقة اجتماعية أرقى قليلاً من طبقة الصياد . وتقدم لنا مثلا جديداً من أمثلة الطيبة والورع فى صاحب المخبز الذى يتكفل بأود الصياد وأسرته أربعين يوماً دون تذمر وفى لباقة مؤثرة إذ يؤكد للصياد أنه لا يعطيه إحساناً . بل هو محاسبه يوماً على ماقدم من خبز وعشرات فضة ، ولكن عندما يأتيه الخير ، لا قبل ذلك . ولندع القصة نفسها تتكلم ، فتفصح لنا عما انطبعت عليه نفس هذا الخباز من الخير :

« ووقف الصياد ينظر ويشم رائحة العيش السخن . فصارت نفسه تشتهيه من الجوع . فنظر إليه الخباز وصاح عليه : تعال ياصياد . أتريد عيشاً ؟ فسكت . فقال له : تكلم ولا تستح فالله كريم . إن لم يكن معك دراهم فأنا أعطيك ، وأصبر عليك حتى يجيئك الخير »

ثم انظر إلى امرأة الصياد يشكو لها زوجها أمره مع الخباز — فتقول له : الحمد لله الذى عطف قلبه عليك . هل آذاك بكلام ؟ فيجيبها : كلا ، وهو يقول لى دائماً ، انتظر حتى يأتيك الخير . وأنا أسألك ، متى يجىء الخير الذى ترجيه ؟ ويكون رد الزوجة : الله كريم . فلا يتردد الصياد فى القول : صدقت . ويحمل شبكته إلى البحر فى اليوم الأول بعد الأربعين .

فاذا بها تصيد حماراً ميتاً « منفوخاً ورائحته كريهة » فيقول « لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ثم يكاد إيمانه يتزعزع وهو يخاطب نفسه « قد عجزت وأنا أقول لهذه المرأة ، مابقى لى رزق فى البحر ، دعينى أترك هذه الصنعة . وهي تقول: الله كريم — سيأتيك بالخير . فهل هذا الحمار الميت هو الخير ؟ »

ويتوجه فى غم شديد إلى مكان آخر مبتعداً عن رائحة الحمار ويلقى شبكته.فتحمل إليه الخير كل الخير ، فى صورة سمكة البحرى يبادله فاكهة البر بجواهر البحر .

ويقيني أن صاحب القصة لم يختر اسم عبد الله اعتباطاً . وهذا الاسم يعزز ماأنا ذاهب إليه من أن القصة يحركها روح دينى ، ويسرى فى أعطافها إيمان عميق . فلم يختص المؤلف عبدالله البرى وعبد الله البحري بهذا الإسم . فهذا الملك يسأل صهره عمن يكون صديقه الخباز وماسمه ، فيجيبه الصياد « اسمه عبدالله الخباز . وأنا اسمي عبدالله البرى . وصاحبي اسمه عبد الله البحرى » — فيقول الملك « وأنا اسمى عبد الله ، وعبيد الله كلهم إخوان »

وهانحن أولاء نرى شخصاً آخر من أشخاص القصة — وليس من الطبقة الفقيرة كالصياد ، ولا من الطبقة الوسطى كالخباز ، بل هو ملك البلاد بالذات — مفعماً إيماناً وثقة بالله ، فهو قائل لشيخ الجوهرية ومن جاءوا يتهمون الصياد بالسرقة « ياقبحاء ! أتستكثرون النعمة على مؤمن ؟ لماذا لم تسألوه أولا ؟ ربما رزقه الله من حيث لايحتسب . أخرجوا ، لابارك الله فيكم »

وهو القائل بعد سماعه قصة الصياد « يارجل ، هذا نصيك ولكن المال يحتاج إلى جاه ، فأنا أستندك بجاهي » ثم يزوجه الأميرة ابنته

وماذا تتوقع أن يكون اسم الأميرة بعد هذا ؟ أم السعود ! لو أن كاتباً رمزياً كتب قصة الايمان لما اختار للأميرة اسماً أفضل من هذا . « أم السعود » ، السعود الذى يلمع فى طالع المؤمن القانت .

وتعال معى إلى القسم الثانى من القصة ، ماذا ترى؟

هذا عبد الله البحرى يسأل صاحبه عن قبر النبي ويقول : « هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة هذا النبي الكريم » . ثم يدعو عبد الله البرى أن ينوص بصحبته فى أغوار البحر ليحمله هدية إلى قبر النبي

وتتجه القصة بعد ذلك اتجاهاً فلسفياً واضحاً لمن يطالع ما وراء السطور . فهذا البحر مظهر من مظاهر الكون تتضاءل حياله الأرض التي تعرفها . وها هو ذا « الدندان » أكبر أحيائه طرا يأكل من دواب البحر « أما سمعت المثل القائل : مثل سمك البحر القوى يأكل الضعيف ؟ » حكمة الخالق يصدع بها المخلوق

ويخشى عبد الله البرى إذا نزل مع صاحبه إلى البحر « أن يصادفه هذا النوع فيأكله » . وهنا يكشف صاحب القصة عن مرماه الفلسفى ، إذ يؤكد لنا بأن « الدندان » يموت لساعته إذا أكل ابن آدم . وليكف أن يصيح فيه الانسان صيحة ليموت . أى تأمل ما تميز به الانسان الضعيف بجسمه، فهو يستطيع بعقله أن يتغلب على المخلوقات الأخرى . وهذا عبد الله البرى يسبح فى أمواه البحر فيرى جميع الأحياء البحرية تهرب منه . ويسأل صاحبه عن هذا فيجيبه « مخافة منك ، لأن جميع ما خلقه الله يخاف ابن آدم »

ويشهد بطل القصة عجائب البحار كما تخيلها المؤلف . وخياله فى أغلبه شبيه بتخيلات الشعوب الفطرية التى ترى فى آلهتها صوراً مما تشاهده حولها ، إنساناً أو حيواناً أو جماداً . ففى هذا البحر الخيالى جبال ووهاد ومدائن . وفيه « شيء يشبه الجاموس وشيء يشبه البقر، وشيء يشبه الكلاب ، وشيء يشبه الآدميين » وخيال صاحب القصة قائم على الـ anthropomorphisme حسب ما اصطلح عليه الباحثون في نفسية الشعوب الفطرية . فهو يصور بعض الأحياء البحرية تصويراً آدمياً مع تغيير طفيف اقتضته حياتها فى الماء : كالزعنفة الذنبية ، وتلك الأطراف النابتة من بطونها . ولهذا التصوير أصل من الواقع . وربما سمع صاحب القصة أو رأى نوعاً من الفقم يعرف بالدوجونج Dugong لا تزال تعرض بعض نماذجه على شواطئ المحيط الهندى باعتبارها « أبناء البحر وبناته » . وقد عرض علىّ بعض اليمانيين فى عدن ذكراً أو أنثى من تلك الحيوانات اللبونة على هذا الاعتبار

وللقارئ أن يفاضل بين قصة « عبد الله البرى وعبد الله البحري » وبين قصص « السندباد » — وربما عالجت تلخيصها على هذه الصفحات يوماً — ليرى فى هذه الأخيرة خيالاً أغزر مادة وأبرع أسلوباً . وفى رأيى أن الخيال فى قصص « السندباد » غاية ينتهى إليها الوصف . بينما هو فى قصة « عبد الله » واسطة لغاية هى مانحن بسبيله من المرامى الفلسفية للقصة

وأود بهذه المناسبة أن أشير إلى قصيدة « شيللر » وعنوانها « الغواص » [1] . وفيها يرسم لنا خيال الشاعر « الرومانتيكى » صورة لأعماق البحر من نوع يختلف كثيراً عما نحن بصدده فى قصة « عبدالله البحرى » . إذ يطلق « شيللر » العنان لخياله فى أسلوب جمع كافة المميزات الشعرية . بينما ينهج صاحب قصة « ألف ليلة » نهجاً واقعياً مباشراً فى وصف عالم البحار . كأن عبدالله البحرى أحد الأدلاء يشرح للسائح عبدالله البرى ما تقع عليه باصرته تباعاً

وبرغم هـذا الأسلوب الواقعى ، يلقى علينا المؤلف درسه الدينى من طرف خفى . ويظهرنا على قدرة الخالق بما يسرده علينا من وصف أنواع غريبة من المخلوقات . وإذ يبدى عبدالله البرى عجبه لكثرتها ، يجيبه عبدالله البحري « وأى شيء رأيت من العجائب . أما سمعت المثل القائل : عجائب البحر أكثر من عجائب البر ؟ » . وهذه حقيقة لا مغالاة فيها ، يعرفها كل من درس علم الأحياء

ويدخل الصديقان مغارة عبدالله البحرى . وهنا منظر عائلى كله أنس وبهجة . تأمل كيف تتندر الأسيرة بالضيف «الأزعر»

(١) أعلن رجائى أن يتفضل حضرة الدكتور محمد عوض بترجمة هذه القصيدة لمجلة « الرسالة » . ومع يقينى بأن ترجمة كائنة ما كانت لا تستطيع أن تنهض على توقيعها الموسيقى الرائع ، إلا أن ما نعرفه عن مترجم « فاوست » و « هيرمان ودوروتيا » يدفعنا إلى الأمل أنه لا يحرم قراء العربية من قصيدة شيللر Der Taucher